ألبرتو مورافيا..

- تسير نائمة..
- محرومة من الغريزة
- مخطوفة...
- متشردة...
- الدولاب...



ترجمة: نهاد محرم

دار ابن زيدون
بيروت

مكتبة مدبولي
القاهرة

ألبرتو مورافيا..

- تسير نائمة..
- محرومة من الغريزة
- مخطوفة...
- متشردة...
- الدولاب...

ترجمة: نهاد محرم

مكتبة مدبولي
القاهرة

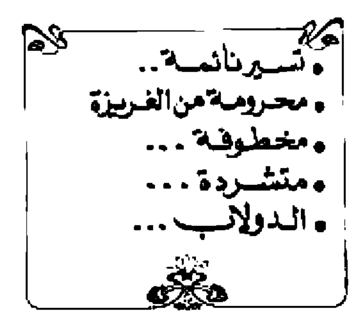


الطبعة الأولى
١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م

مكتبة مدبولي
٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة

دار ابن زيدون
للطباعة والنشر والتوزيع
ص.ب: ٧٨٤٦ - هاتف: ٢٢٥٨٨٨
بيروت

البرتومورافيا..



تسبير نائمة

زوجى لا يعمل . بينما أشتغل أنا بالمحاماة .
على أن القول بأن زوجى لا يعمل . . قولٌ غير دقيق .
صحيح أن زوجى لا يعمل . . إلا أنه مشغول بأمور كثيرة . بل إنه من اكثر الرجال الذين أعرفهم انشغالاً .
بماذا ؟
بتأليف ، وتطوير ، وتطريز مغامراته العاطفية المتعددة .
باختصار شديد : مشغول بخيانتى . .
من ذا الذى يقول إن ممارسة الحب ـ وأقطع أنه مع أكثر من امرأة فى نفس الوقت ، فقد أحصيتهن مرّة فوجدت أنهن ثمانية ـ تعنى عدم الاشتغال بشىء ؟!
إن من يقول شيئاً من هذا القبيل . . لهو ساذج ـ بغير شك ـ فى شئون الحب !
لا جدال أن زوجى يحتاج إلى كل وقت من أوقات فراغه ـ وغير فراغه ـ لكى يتفنّن فى ابتداع الحيل التى تمكنه من التستر عنى وعن كل امرأة من حوله يخونها . . حتى لو استدعى الأمر أن يسطو على أوقات نومه !

ولقد تحملت خياناته طوال السنوات الخمس الأولى من زواجنا .
لكنى - فى النهاية - قررت الانتقام .
كنت أستطيع بطبيعة الحال أن أطلب الانفصال لولا تلك العقبة الصغيرة : كنت أحبه !!
وكان كلما خاننى .. كلما ترعرع حبّى !!
وهكذا أضلنى الحب عن طريق الانفصال .. وهدانى - بمنطق العشق الغريب - الى طريق الانتقام ..
باختصار : قررت أن أقتل زوجى .
لدىّ خاصّية معينة : المشى أثناء النوم .
كثيرا ما أنهض من فراشى فى الليل وأسعى بوجه شديد الشحوب .. ذى عينين رماديتين محملقتين فى شرود .. وشعر أجعد مبعثر على الكتفين .. وذراعين ممدودتين .. ويدين مطبقتين على رداء النوم حتى يظل مفتوحا كأنما أهب جسدى المهمل ، وأنا أهيم فى أرجاء البيت
زوجى و « لينا » الخادمة ، يعرفان علّتى هذه . ويحرصان على عدم التعرّض لى أثناءها .
أطوف عادةً بالحجرات .. أفتحَ الأدراج .. أبدّل فى وضع الأشياء .. أتفادى - بالكاد - الاصطدام بقطع الأثاث .. ثم أعود بعد ذلك الى الفراش .
وسيرى أثناء النوم .. مشهور أيضا فى العمارة . فقد خرجت

ليلة من شقتنا ، وتوجهت الى شقة الجيران وضغطت على الجرس !

ومن المعروف أن من يمشى أثناء النوم يستطيع ـ وهو نائم ـ أن يقوم بعمليات بالغة التعقيد ، تستوجب فيها لو أراد أن يقوم بها فى يقظته ، قدراً من الوعى والقدرة أكبر من المألوف . وفى الواقع أنّ من يمشى أثناء النوم ، يشبه الى حدٍّ كبير الممثل الذى يؤدى دوراً على خشبة المسرح . فهو يتقمص شخصية الدور فى كل شىء ، ومن أجل كل شىء . ففيه قدرات معينة ترقى الى مستوى القمة . . وأخرى تبدو كما لو كانت عاجزة . وكما يزكى الدور حواس الممثل . . فإن الحلم الذى يعيشه السائر أثناء النوم يحكم دقة حركاته ويعصمها

والآن . . تخيلت لو أن نوبة من نوبات المشى أثناء النوم قد انتابتنى . . وبدلاً من القيام اثناءها بما اعتدت أن أقوم به ـ من تحريك الكراسى وفتح الأبواب والتنقيب فى الأدراج ـ قمت ببساطة بقتل زوجى على طلقات المسدس ! !

إن السائرين نياما يفعلون هذا وأكثر !

إنّ إطلاق النار من مسدس أسهل ـ مهما كان ـ من السير والذراعان متشنجان على حافة أحد الأسوار ! !

وسوف أعود ـ بعد ذلك ـ إلى سريرى فى حجرتى . . وكأن شيئا لم يكن . . لأصحو فى اليوم التالى كى أجدنى وحيدة فى يأس محبّب : أرملة ! !

أتخيل ثم أنفّذ . .

أختار اليوم . . وتأتى الليلة . . وأتناول عشائى وحدى .

كان زوجى قد غادر المنزل بعذرٍ واهٍ (عشاء رجالى لزملاء من خريجى نفس الدفعة) ليسهر مع واحدة من عشيقاته !

بعد العشاء . . أذهب لأجلس فى الصالون . . وأقضى أربع ساعات : أدخّن . . أشاهد التليفزيون . . أقلب صفحات المجلات والجرائد . أشعر بكيانى كله متجمد . . متوتر . . متوجع . . ورأسى خاوٍ تماما ولا أفكر فى شيء على الإطلاق ! من يدرى ؟ . ربما أكون قد بدأت فى حالة يقظة نوم . !

وعلى الساعة الواحدة صباحا يعود زوجى .

أضمر له قدراً لائقاً من ألفاظ السّباب استقبله بها حتى لو أنه توجّه الى الصالون كى يمنحنى قبلة !

لكنه يتجه مباشرة نحو غرفته ويغلق على نفسه .

ألجأ أنا الأخرى الى غرفتى .

أخلع ملابسى . .

أستلقى على سريرى . . وأقضى أربع ساعات أخرى أدخّن فى الظلام .

من العجيب أن المرء لا يستشعر نكهة السيجارة إلا اذا شاهد دخانها !

وعلى الساعة الخامسة . . أنهض - كما بيّت - من فراشى .
أخلع القميص . . وأسدل رداء شفافا على الجسد العارى . .
يبدو أن هذا جزء من الطقوس التى اعتدت أداءها خلال نوبات
سيرى أثناء النوم .

الّا أن هناك جديداً هذه المرّة : مسدس زوجى الذى اعتاد
تخبئته فى غمده . . يقبع بثقله فى قاع جيب ردائى الشفاف .
أتردد . . ثم . . بإرادة جامحة - كما ينطلق الممثل الى خشبة
المسرح تدفعه غمرة الحماس - أتوجه الى الباب . أفتحه . أخطو
إلى الدهليز . ممر ضيّق بين صفّين من دواليب الحائط رفوفها
مكتظة بالكتب . ها أنذا فى الضوء الخافت الصادر من مصباح
ضيئل . . أتهادى . . مرمريّة . . شاحبة . . عيناى محملقتان
شاردتان . . شعثاء الشعر . . يداى مطبقتان على طرفى ردائى
المفتوح يتدفق منه الصدر . . ورأسى مشدود إلى الوراء .
هذه هى طريقتى حينما أسير نائمة . فكم صوّرها لى زوجى هو
و « لينا » مراراً .

خطوة . . خطوة . . حتى أصل نهاية الممر حيث توجد غرفة
« لينا » الخادم العجوز . أفكر فى أن أتراءى لها حتى أضمن - فيما
بعد - شهادة فى صالحى . أدير فى بطء قبضة الباب . أفتحه .
أطلّ إطلالة جامدة . . بلا حياة .

مفاجأة !! على الضوء غير المباشر الآتى من الممر . . بدا سرير

« لينا » غير مرتّب إلا انه خاو ! الغطاء مكوّم فى ناحية وكأن « لينا » قد هبّت على حين غرّة !

يعترينى شك مزعج أن شيئا ما فى مخططى قد أصابه الخلل !

أظل أتمشى . . جامدة . . بطيئة . . شامخة . . كالروح .

أطوف . . حمّام « لينا » . . حمّامنا . . ولا شيء !

أين عساها تكون قد ذهبت على الخامسة صباحاً . . خادمتى ؟!

الشك فى أنّ خللاً غامضاً قد أصاب مخططى . . يتمادى . .

أعقد العزم ـ رغم ذلك ـ على أن أنتقل إلى مرحلة تنفيذ الخطة . . ولو بدون شهادة « لينا » .

ها أنذا أتهادى ـ من جديد ـ فى الممر . أفسح الطريق معى لعاداتى طبقا لرواياتهم لى عنها . أتوقّف . أسحب كتاباً من فوق أحد الرفوف . أفتحه . أتظاهر بالقراءة . أعيده مكانه . كل هذا تمويه فيما اذا كان هناك من يراقبنى . ولكن من ذا الذى يراقبنى !!

ها هو باب زوجى .

أدير مقبضه بحذر .

أفتح .

أطل .

يا للعار !!

« لينا » . . « لينا » المفقودة . . العجوز ـ وإن كانت نشيطة فى

عملها ـ راقدة هنا فوق سرير زوجى ؟! منقلبة على ظهرها . . عارية . . تسند رأسها بمرفقها . . تنظر نظرة ابتهاج ـ لها لاشك ما يبررها ـ الى زوجى وهو ملقىً على ظهره مستنداً برأسه على الوسادة . . ونصفه الأعلى خارج الغطاء !!

مرّةً أخرى . . أشعر أن شيئا ما ينتاب مخططى .

هذا الذى أشهده ما كنت أتوقعه . . ولا يمكن بصراحة أن يتوقع على الإطلاق !!

لكن . . ليس من الحكمة أن أتعمق الآن فى هذا الإحساس المنغص . . فإن أمامى ما هو أهم .

إن هذه الخيانة الجديدة التى يقترفها زوجى مع الخادمة . . مع امرأة متقدمة فى السّن . . مع فرد يمكن اعتباره من أفراد العائلة . . فردٌ قرّبته منى وائتمنته على اسرارى . . هذه الفاحشة الأغرب من الخيال ـ وإن كانت ليست مستغربة من رجل كزوجى ـ يجب أن تنال الجزاء .

أقبض على المسدس المستكن فى قاع الجيب . . أسحبه فى بطء . . أصوبه ناحية السرير . وأفيق . .

إنى واقفة أطلّ من النافذة مستندة بمرفقىّ على حافتها . . أنظر الى الحديقة .

أمامى سدٌ من النبات المتسلّق الأسود الكثيف يعتلى السور المحيط بالمنزل .

على ضوء مصباح فى الشارع يبدو ركن من أركان الحديقة .
مصطبة من الرخام أطفأت لمعته الرطوبة . .
خميلة تحف بها الورود من كل جانب . .
الحوض ونافورته التى تنبعث مياهها من صخرة صناعية . . تعلو المياه ضامرة القوام لامعة ثم تتساقط بإعياء فى لجّة الحوض .
إن هذه اللحظة . . هى أكثر اللحظات هدوءاً . . وعمقاً . . وإنهاكاً . . فى الليل كله .
لولا ذلك الخرير الصادر من مياهِ النافورة . . لتصوّرت أننى فى حلم . .
لفحة برد وقشعريرة تسرى فى جسدى . أضم الرداء على صدرى . أفطن فجأة أن المسدس ليس فى جيبى .
واضح أنْ نوبة من نوبات السّير اثناء النوم قد انتابتنى . وأننى نهضت ـ فى الحلم ـ من السرير . . وتوجهت إلى النافذة . . ففتحتها وأطللت . . ولكن . . خطة قتل زوجى . . أهى حالة من حالات المشى أثناء النوم ؟! لابد أنها ليست سوى حلم داخل الحلم !!
حلمت أنى تظاهرت بأنى أحلم . . وأنى أطوف ـ كما أطوف فى حالات المشى أثناء النوم ـ بأرجاء البيت .
على أن هناك شيء حدث خلال الحلم جعلنى أتبين أننى لم أكن أتظاهر بأننى أحلم . . بل كنت أحلم بالفعل !

ما هو ؟!

واقعة الخيانة - التى لا يمكن تصورها - بين زوجى و « لينا » .

ذلك التصور المجنون الذى لم تمله إلا غيرتى العمياء !!

على أية حال .. لا أستطيع أن أجزم بشيء .

ربما يكون زوجى قد غالى فى ممارسة « دون چوانيّته » حتى ذهب الى حدّ التعلّق بخادم طاعن فى السن ..

وربما أكون قد أطلقت الرصاص فعلاً .. وربما أكون - بعد إطلاق الرصاص - قد تركت المسدس يسقط من يدى وعدت إلى حجرتى وأفقت ..

لا أحد يدرى !!

إن التركيبة فى مجموعها سراب خصب من الغيرة على أحلام اليقظة .

تركيبة لا تتيح لى أن أتصدى للواقع ..

والآن ..

أخشى أن أترك النافذة وأذهب لأتحقق مما حدث بالفعل ..

وهكذا أظل ساكنة معتمدة بمرفقى على حافة النافذة .. انظر الى الحديقة ..

ربما أكون فى حلم لم افق منه بعد ..

مخطوفة

أهب من نومى فزَعاً . . وفى الحال أشعر أن الظلام المحيط بى ظلام غريب وغامض !

ظلامٌ مختلف عن الظلام الذى أعرفه فى صحوى !

ظلامٌ ذو طابع أعجز عن تعريفه وإن كنت أجزم أنه طابع عدوانى !!

إنقباض شديد يعتصر قلبى فجأة . .

أين أنا ؟! ولماذا هنا ؟! وكيف جئت ؟!

بحثاً عن إجابة لهذه الأسئلة . . أمد يدى الى الجانب الآخر من السرير . . لكنى سرعان ما استردها بقشعريرة !

لقد لامست أصابعى ظهرا منحنياً . . عموداً فقرياً وعضلات وشى بها قماش البيجاما !!

لاشك ـ إذن ـ أن رجلاً يرقد الى جوارى . . وأنا لا أعرف من هو !!

وبدأت أعتقد أنه لسبب ما ـ لازلت أجهله ـ قد جىء بى إلى هنا رغماً عن إرادتى وبالقوة . .

بعبارة أخرى : مخطوفة !!

إن رقدتى هذه فى فراش واحد بجوار رجل قضيت معه ـ على أى فرض من الافتراضات ـ ليلة كاملة .. لوضع يثير أسوأ الظنون !!

أجل .. رجلان أو أكثر اختطفونى بينما كنت أتمشى فى شارع من الشوارع الهادئة . حملونى مقيدّة مكممة فى سيارة وأخذونى ليلاً الى هذه الشقة .. نومونى بمخدر .. وجرّدونى من ثيابى .. وأرقدونى عارية على السرير .. واغتصبونى !!

إن هذا التصوّر لما عساه قد وقع لى .. يذهلنى !!

يذهلنى بمدى « طبيعيته » !!

فمن الطبيعى جدا ـ إن جئنا للحق ـ أن تتعرض شابة جميلة لمثل هذا النوع من عمليات العنف . بل إنى أكاد أقول إن المستغرب الّا تتعرض !

عموماً .. إن الآن ليس مجال هذه التأملات الفلسفية !

المهم الآن هو الخروج ـ بأى شكل من الأشكال ـ من هذه الشقة .. وتسجيل عنوانها بدقة للإبلاغ فوراً عن هؤلاء المختطفين .

لقد قاموا بالقوة بانتزاعى من صميم حياتى .. من أحبائى .. من اهتماماتى .. من أجوائى المفضلة !

ولسوف يدفع هؤلاء الجناة الثمن غاليا .. غاليا جدا .

الحمد لله أن أوجد القانون والعدالة والشرطة .

أيصحّ أن تتعرض حياة الإنسان للقسوة والعذاب دون أن ينال الفاعل جزاءه الرادع ؟!

يطوف بخاطرى كل هذا . . وأنا أسحب بحرص وخفة ساقى اليمنى من تحت ثنايا الغطاء دون المساس بالرجل النائم جوارى .

قدمي تلمس باشمئزاز وبر سجادة لا تقل غربة عن الظلام الذى يخفيها !

أضع القدم اليسرى أيضا وأجلس لحظة على حافة السرير ثم ـ بهبّة واحدة ـ أنهض واقفة .

أحس بأنى مرتدية قميص نوم لكنه ليس قميصى ! قميص غريب لا أعرفه ! غريب لدرجة أننى ـ فجأة وبعنف ـ اقتلعه من حول رقبتى واستخلص رأسى منه ! وعارية تماما أتحسس طريقى حتى أعثر على الباب . أفتحه وأغادر الحجرة .

ها أنذا فى دهليز الشقة . .

ممر عادى جدا ليس له أى طابع مميز ! أربعة أبواب على الجانبين وفى نهايته باب الشقة . بضعة صور معلقة على حائطيه . . وشماعة للشماسى من النحاس الأصفر . . وأربعة مصابيح ضئيلة الضوء تنفث بصيصا شاحبا . أشياءٌ تؤكد جو الغربة فى المكان . . وإن كانت ـ بكآبة ـ تشيع أيضا الشعور بأن المكان «مألوف» !!

إن المجرمين الذين يستأجرون شقة من أجل أغراضهم الدنيئة ، لا يلتفتون إطلاقا عند تأثيثها لمسألة الأناقة أو الطابع المميز . لا يهتم بهذه الأشياء إلا الذين يفكرون فى تكوين عش عائلى يشيع فيه الدفء والأصالة .

أما المجرمون فيكفيهم توافر الأمن فى المكان ـ أيا كان هذا المكان ـ لاقتراف جرائمهم . أى أثاث كان . . يحصلون عليه من أول محل يصادفهم . . يفى بالغرض .

إن العنف كان ولا يزال مكشوف الوجه معدوم الحياء منذ أزمنة الكهوف فى عصور ما قبل التاريخ وحتى زمان هذه الشقق الوضيعة عديمة الطابع والشخصية !!

الوقت مبكر جدا . . قرب الفجر . . وشعاع رمادى هزيل ينازع ظلا واهنا فى حجرة صغيرة .

اتجه الآن إليها على أطراف قدمىّ .

أتوقف عند عتبة بابها وأنظر . أرى أريكة . . ومقعدين بمساند . . ومنضدة . . وأربعة كراسى . . ودولاب صغير .

كل شيء « غريب » عنى بشكل مخيف . . ولكنه فى الوقت نفسه « مألوف » لدى بشكل مخيف أيضا !!

مألوف . . إذ يغمرنى إحساس بأنى عايشته من قبل !

فمما لاشك فيه أن هذه الحجرة الصغيرة قد شهدت الجانب الأبشع فى عملية اختطافى . يشى بذلك : الكئوس المتناثرة .

زجاجة الخمر . . فناجين القهوة . . منافض السجائر المكتظة بالأعقاب . . وعلبة السجائر الملقاة فارغة على الأرض . أتعرف عليها جميعا . . . لكننى - فى هلع جارف - أنكرها جميعاً !!
أتوجه إلى النافذة وأطلّ . . ضاغطة بصدرى وبطنى على زجاجها .
أقسم أن الشقة تقع فى شارع من نفس شاكلتها ! فكما أن الشقة تماثل مئات من الشقق . . فكذلك الشارع يشابه آلافا من الشوارع !
تحت بصرى صفٌ من السيارات المتعامدة على امتداد الرصيف كأشواك السمك . . والمحلات مازالت مغلقة وأنوارها مطفأة .
أسفل العمارة المقابلة : جزارة ومحل للعطور ومحل للأزياء .
أرى شرفات شقق العمارة ولكنى لا أستطيع رؤية السماء لأنى - فيما يبدو - بالطابق الثانى .
مصابيح الشارع مازالت مضيئة بنورها الأصفر المشع فى رمادية الجو . حفرة كبيرة فى الأسفلت بمنتصف الطريق .
قشعريرة برودة تجعلنى أغادر النافذة وأتجه تلقائيا إلى الأريكة لأنكمش فوقها . أحتضن الساقين بالذراعين ليلتصقا بصدرى وأستند بوجهى على الركبتين .
يتضح لى الآن أننى لن أتمكن من الذهاب - كما كنت أنوى - للإبلاغ عن مختطفىّ .

ذلك أنهم بنقلى إلى هذه الشقة المجهولة الأصل . .
فى ذلك الشارع المجهول الأصل . .
بعيداً عن كل ما كان يشكّل كيانى . .
فإنهم - على نحو ما - قد جردونى من « حاسة الشخصية » !!
من أكون ؟! لم أعد أعرف !!!
من المحتمل أن أكون « أنا » . . بقدر ما هو محتمل أن أكون واحدة « أخرى » . .
فإن كنت لا أزال ذاتى « أنا » . . فيحق وينبغى أن أثور .
أما إذا كنت واحدة أخرى أصلا - كما هو يبدو لى - فمن يدرينى أن الموقف الذى أتواجد فيه ليس إلا موقفاً من مواقفى الطبيعية التى اعتدت عليها . . ومن ثم فليس لى أى حق فى الثورة !
بل من يدرينى أن هؤلاء الذين اختطفونى لم يتمكنوا أساسا من تشكيلى شخصية جديدة أكثر مواءمة لأهدافهم ؟
ولكن . . ماذا تكون أهدافهم هذه . . ؟!
أذهب فى الانكماش إلى أقصى مدى . . على الأريكة الصغيرة . .
تقع عيناى على الكؤوس والفناجين ومنافض السجائر المبعثرة فوق المنضدة . .
وتجول بخاطرى فجأة أنه يجب أن أنهض فوراً من على هذه الأريكة . . لأرتدى ثوباً ما . . وأتوجه إلى المطبخ لإحضار

صينية أضع عليها هذه الكؤوس والفناجين والمنافض لكى أغسلها . ثم يجب أن افتح الثلاجة لأصب بعضا من اللبن فى إناء وأضعه على النار . . وأبدأ فى إعداد القهوة . . وأنتظر حتى تغلى . . إلى آخر هذه الأشياء . .

ولكن . . كيف يتسنى الجمع بين هذا الاهتمام بالشئون المنزلية . . وبين ذلك العنف الإجرامى الذى دار عشية أمس ؟!
واضحٌ أن هدف هؤلاء الذين اختطفونى . . أن يجعلوا منى اداة صالحة للاستعمال فى كافة المجالات . . وليس فى مجال واحد فقط هو- ويستحسن أن نسميه - مجال وظائف الأعضاء !!
لقد كنت فى بيتى . . وفى حياتى الأصلية - بكل تأكيد - شخصا ذا اسم . . ذا حالة اجتماعية . . وذا مهنة . أما هنا فلم أعد شيئا على الإطلاق ! أو على الأصح أصبحت هذه « الأنا » . . !!

ولكن . . من تكون هذه الأنا ؟! هذا هو السؤال .
لمعرفة الحقيقة . . ينبغى أن ان أعرف من أنا فى اعتقاد المختطفين ؟!
ولكن للوصول الى ذلك يتحتم على أن أفعل كل ما يريدونه منى .
شيئا فشيئا من خلال ما سيجعلوننى أقوم به سأدرك فى النهاية : من أنا . .

فجأة . . وبلا مقدمات . . يصفع سمعى صوت أجش غاضب صادر من الحجرة الأخرى . . ينادى باسم امرأة .

باسم : « لويزا » . .

ولما كانت جميع الشواهد تدل على أن الشقة ليس بها سوانا أنا والرجل الذى كان نائماً بجوارى . . لذا وجب علىّ أن أفطن إلى أن الرجل إنما ينادينى . . وأن « لويزا » هذه . . ليست إلا « أنا » . . .

ها نحن ـ إذن ـ قد أمسكنا بأول الخيط : إن اسمى ـ عند هؤلاء الذين اختطفونى ـ هو « لويزا » . .

وسيطلب من هذه الـ « لويزا » ـ بطبيعة الحال ـ أن تسرع بالعودة إلى الحجرة . . فتقوم بشد الستائر وفتح النوافذ . . ثم إعداد الإفطار . .

تماما كما توقعت . . وكما لم يكن من تأديته بد . .

هكذا . . وشيئا فشيئا . . بدأت ملامح « شخصيتى الجديدة » تتضح . .

أما شخصيتى القديمة فقد تاهت . . ولن أعثر عليها أبداً . .

محرومة من الغريزة

لم أتزوج . . لأننى أدركت مبكراً جدًّا أن من يفكر دوما فى الحب ـ مثلى ـ أفضل له أن يبقى بمنأى عن الزواج . واتخذت ـ بدلاً من الزواج الذى يحتمى به من الحب كثيرون ـ مهنة مضيفة جوية . مهنة تكفل لى أن أعيش وأن أفكر فى الحب وقتما يحلو لى دون أن أبالى بأحد .

أطير يوميا على خط الشرق الأوسط . وفى الوقت الذى أقوم فيه بتأدية عملى بابتسام واهتمام وأنا أقدم الوجبات وأراقب ربط الأحزمة وأعاون الأمهات . . أفكر فى الحب !

إما فى الحب الذى نلته أو فى الحب الذى سأناله .

على أن هذا لا يعنى إطلاقا أننى امرأة رمرامة . على العكس . . إننى امرأة تكاد تكون محرومة . بل إن ما يدفع بى إلى دوام التفكير فى الحب ليس إلا ندرة وقوعى فى الحب ! أن أحِب وأن أحَب . . فى آن واحد .

فى الثلاثين من عمرى . . وفى جمالى هذا . . وليس لى فى الحب سوى قصتين اثنتين ! أتراك هذا لا أكف عن التفكير فى الحب ؟!

أحيانا . . أظن أن المهنة التى اخترتها هى التى تسببت فى فقدان غريزتى العاطفية . قد اكون مخطئة فى ظنى هذا . . ولكنى أذكر

انني ـ قبل أن أكون مضيفة ـ كنت أكثر ثقة بنفسي . إن مهنة المضيفة الجوية قد حوّلتني إلى إنسان بلا جذور . لا يعرف لنفسه مقرا . لا يتكلم بلغته الأصلية إلا نادراً . يقضي أغلب وقته فوق السحب . . في الأجواء الرائعة الخالدة العليا . ولكن . . نحن نحتاج ـ لكي نحِب ونحَب ـ إلى جذور . وهيهات أن نغرس جذوراً في السماء !!

ذات ليلة . . في بيروت . . والتفكير اللاإرادي المتواصل في الحب يرافقني . . قبلت دعوة عشاء وجهها لي طيار معنا في الشركة يدعى « ماركو » . كان يطاردني منذ مدة . . وقبلت الخروج معه لكي أمتحن مدى صلاحيته للفوز بي . وأود أن أصفه هذا الـ « ماركو » . . لأنه كان يمثل الطراز الذي يستهويني في الذكور . . بصرف النظر عما انتهت اليه الأمور .

كان « ماركو » طرازاً من هؤلاء الرجال الذين يصلحون للاشتراك في مسابقات كمال الأجسام . على أن هذه القوة الجسدية المفرطة كانت متوازنة بخصائص عكسية .

فلقد كان مصارعاً . . وكان رقيقاً .

كان وحشياً . . وكان منطوياً .

كان مفتول العضلات . . وكان خجولاً .

وكان ـ في المواقف الحرجة ـ يتلعثم بطريقة تعجبني . . وتحرك حناني !

وتوجهنا إلى مطعم شرقى .. مؤثث على الطراز العربى .
وجلسنا فى قاعة على مائدة من الموائد التى تحيط بنافورة رخامية .
طلبنا صنفا اشتهر به ذلك المطعم .. ثم تواجهنا .
كان موقفى واضحاً : إننى هنا لكى أسمع منه أنه يحبنى .. وربما أنه يريد الزواج منى .. ولأننى كنت واضحة فقد أحسست برهبة ! رهبة سرت فى جسدى الرائع الجمال .. المحروم من أية غريزة عاطفية . تلك الغريزة التى اعتادت أن تدعى الصمم - فى مثل هذه المواقف - وأن ترفض أى استجابة . إلا أننى أمام أن « ماركو » هو الذى سيفاتحنى فى الحب وفى الزواج .. لم أجد مفرا من أن أطرح على نفسى السؤال الرئيسى : هل يعجبنى .. أو لا يعجبنى ؟!
رحت أدقق النظر إليه .. وأنا أدرك أن تقطيبة الارتباك التى علت وجهى قد قلبته من وجه المضيفة الجميل إلى وجه مهرج فى سيرك ! وكنت كلما أمعنت النظر إليه .. كلما اضمحلت ثقتى بنفسى . ثم وجدتنى أقول لنفسى :
- نعم .. هو . إنه هو . لاشك أنه هو .
ثم إذا بى أتراجع وأقول لنفسى :
- كلا .. ليس هو . ليس هو أبداً . ولا مجرد أن نفكر فيه .
ولابد أن يكون « ماركو » قد لاحظ شيئا .. فقد سألنى بصوت خفيض :

ـ ماذا بك . . هل تشعرين بأى شيء ؟!
ـ أبدا . . ولكن . . ما بالنا هكذا صامتين . لنتكلم . .
ـ كنت . . فى الواقع . . أريد أن أحدّثك فى شيء . .
واعترتنى ـ على الفور ـ حالة الرهبة :
ـ شيء واحدٌ فقط ؟! . . بل حدثنى فى أشياء كثيرة . حدثنى عن مدينتك . . قل لى أين ولدت . . إرو لى عن عائلتك . .
واستجاب . . ولكن دون حماس . .
أما أنا . . قد خاب ظنى !
فقد كنت أتصوّر ـ ولا أدرى لماذا ـ أن جذوره كانت ضاربة فى أعماق قرية من تلك القرى الأصيلة . . فاذا به مولودٌ فى ميلانو ! فضلاً عن أن طبيعته الصامته جعلت حديثه شاحبا مقتضباً ! وراح يحاول ـ بطريقته ـ أن يشعرنى بحبه . فلم يجد لديه وسيلة أفضل من تثبيت نظراته علىّ !!
نظرات بليدة عنيدة لزجة !! وأنا تحت وابل هذه النظرات . . مستنفرة الأعصاب !
وأحضر الجرسون حساء قواقع . وحاولت أن أفتح قوقعة مغلقة . . فلم أستطع . وانكسر أحد أظافرى ، فانفجرت غضباً :
ـ أرأيت هذه القوقعة ؟! لقد جعلتنى الليلة مثل هذه القوقعة . . منغلقة . . متمردة . . صمّاء !!

ـ لكننى . . فى الواقع . .

ـ لكنك . . فى الواقع . . ما دعوتنى الليلة إلا لتعلن لى عن حبك . لا تنكر . فأنا واثقة . ثم إنك لكى تجعلنى أفهم قصدك . . قمت بمحاصرتى بنظراتك تلك التى تشبه نظرات كلب فى مازق !! كلاّ . . إن هذا لا يصح . . لا يصح اطلاقا !

ـ ما الذى لا يصح ؟ !

ـ طريقتك هذه . طريقتك فى إفهام امرأة أنها تعجبك

ـ اذن . . فقولى لى أنت كيف كان يجب أن أتصرف !

أطلقت ضحكة قصيرة سخيفة . . ثم ـ لا أدرى لماذا ـ قررت أن أعلّمه ما لم أكن أعلم عنه أنا شيئا :

ـ نظرات . . لا . ابتسامات . . لا . تلامس بالأيدى . .

لا . باختصار : الغزل مرفوض !! ثم دعنى أسألك : أما زال أحد يتبع أسلوب الغزل حتى اليوم ؟! لا أظن . لذلك ينبغى أن تتبع أسلوب : الاشتهاء الرياضى .

أصابه الوجوم وهو يردد :

ـ الاشتهاء الرياضى ؟! وماهو الاشتهاء الرياضى ؟!

ولما كنت قد أطلقتها . . فقد تحتم علىّ أن أكملها :

ـ هو الاشتهاء الذى لا يمر بأطوار النظرات . . والابتسامات . . والمجاملات . . إلى آخر هذه الحلقات . . بل إنه كالمعادلة الرياضية : هذه المرأة تعجبنى . . وأنا أعجبها . . . إيجاب

وقبول . إذن نقوم بعملية جمع لاستخلاص النتيجة . . ألا وهى القيام بالشيء الذى ينبغى القيام به . .

ـ وماهو هذا الشيء ؟!

ـ الشيء . . !!

تجمّد فى مكانه كمن صرعته رصاصة . وظل متجمدا كأنه يحاول أن يهضم مسألة الاشتهاء الرياضي هذه . وكان واضحا أنها عسريرة الهضم عليه .

انتهينا من تناول الطعام دون كلام . . ثم قلت له بجفاء أننى كنت متعبة . فدفع الحساب . . وعدنا على الأقدام ـ صامتين ـ إلى الفندق ، وكان قريبا .

تناولت المفتاح من موظف الاستقبال . ويبدو أن ارتباكى كان من الوضوح بحيث أن الموظف نفسه لاحظ علامات الحيرة التى كست وجهى .

فكرت فى أن أمنح « ماركو » فرصة أخيرة ! فدعوته لمرافقتى إلى الطابق .

وفى المصعد تراجعت واستندت إلى الجدار . لكننى من الداخل كنت أصرخ :

ـ هلمّ . . ماذا تنتظر . . اهجم علىّ . . .

لكنّ شيئاً لم يحدث !

ومن حسن الحظ أن شيئا لم يحدث لأننى كنت سوف لا أتوانى ـ لو

أنه هجم عليّ كما تمنيت ـ عن معاجلته بصفعة على ملء وجهه تجعله يستعجب !
توقف المصعد . . فغادرته بعصبية وأنا أعضّ شفتى السفلى .
وسرت برأس منكس صوب باب حجرتى . وكان « ماركو » يسير خلفى . وأدرت رأسى إلى الوراء فجأة فإذا بفمى يكاد يلامس فمه . . وإذا بنا أخيراً . . تجمعنا قبلة !!
قبلة كان مستواها : أقل من المتوسط !!
أثناءها فكرت وقلت لنفسى :
ـ كلا . . ليس هو . . بالتأكيد ليس هو . .
ثم تباعدنا قليلاً . . وعندئذ لمحت من فوق كتف « ماركو » . . المصعدين .
مصعدنا . . وكان يهبط والمصعد الآخر . . وكان بابه يفتح ، ويخرج منه رجل . . رمقنى بنظرة دلت على أنه رآنا ونحن متعانقين . .
كان الرجل أشقر . . فى منتصف العمر . . قصير الشعر . . أحمر الوجه . . أزرق العينين . . صغير الحجم وان كان متين البنية . . يرتدى بنطلونا كحلى اللون وقميصا منقوشا عليه « هلب » .
كان بحّارا !
أحسست ـ ربما لأول مرة فى حياتى ـ أن الغريزة التى طالما افتقدتها

حتى تصورت أننى محرومة منها . . تتحرك داخلى !
تتحرك بوضوح وجلاء !
وعندئذ همست لـ « ماركو » أقول :
ـ لم نعد وحدنا . . فاذهب الآن . . وإلى اللقاء غدا . .
وشددت على يده اودعه وأنا أكاد أدفع به إلى الوراء !
ومضى « ماركو » يركض سعيداً .
أما أنا فانحنيت أولج المفتاح فى ثقب بابى . لكن يدى كانت ترتعش . . ترعشها تلك الغريزة التى عثرت عليها أخيراً . ولم أفلح فى إيلاج المفتاح !
وهنا شعرت أن البحّار يدنو من كتفى !
قلت لنفسى :
ـ أرجو أن يكون قد رآنا فعلاً . . فلعل ذلك يحَفّزه على معاملتى دون تكلف . .
واذا بيد حمراء غليظة . . ينبت عليها شعر أشقر . . تنزلق فوق يدى . . فتتناول المفتاح وتولجه بكل ثقة وثبات . . فى الثقب . ينفتح الباب . . فيدفعنى الرجل الى الحجرة . . ويغلق الباب خلفه . . ويضىء النور .
رياضى . . !!
تمّ هذا كما لو كانت عملية حسابية أو معادلة رياضية .
لكننى ما أن شاهدت الرجل الأشقر . . ذا البنطلون الكحلى . .

والقميص المنقوش عليه علامة « الهلب » . . مقبلاً عليّ بابتسامة كشفت عن أسنانه . . ويدين أفصحتا عن رغبة فى نهشى . . حتى هربت منى الغريزة وصحت :

ـ حذار أن تقترب منى . .

وبثقة تامة . . هزّ رأسه . . وخطا خطوة أخرى إلى الأمام . عندئذ جعلت أتقهقر حتى وصلت إلى الحَمام . .

وانحنيت بسرعة وذعر والتقطت خرطوم الدش . . وفتحت الصنبور . . وصوبت رشاش المياه نحوه . كان الفندق حديث التأسيس . . واندفاع المياه قوياً .

بحّارٌ حقاً . . معتادٌ على أمواج البحر ! !

فقد ظل صامداً متصدياً لمرمى المياه التى غمرته ! ثم خطا خطوة إلى الوراء كأنه أراد أن يطمئننى . . وقال بالإنجليزية :

ـ عفواً . . فلقد تصوّرت . .

فأجبته بالإنجليزية أيضاً :

ـ أننى كما منحت الأخر قبلة . . فسيمكنك أن تذهب معى إلى الفراش . . أليس كذلك ؟ !

ـ ربما . .

ـ اذن . . أغرب عن وجهى حالاً . . وإلّا صرخت .

ولا أدرى لماذا سألنى فى تلك اللحظة عن جنسيتى ! وقلتها له وأنا محتمية منه بخرطوم الدش .

جاملني وقال لى أن روما تعجبه كثيرا . . ثم انحنى انحناءة خفيفة ومضى .

أصبحت وحيدة . .

« ماركو » كان خجولا وعاطفيا . . ولم يرق لى !

والبحّار كان « رياضيا » . . ولم يرق لى أيضا !

اقتربت من المرآة

نظرت لنفسى . .

وقلت بصوت عالٍ :

ـ محرومة من الغريزة . . !!

متشردة

في البداية . .

كان المنزل عبارة عن شقة فى حىّ « پاريولى » . . أنيقة وان لم تكن كبيرة : مجرد غرفتين وحجرة للجلوس بالإضافة إلى ما اصطلح على تسميته بالمرافق .

شقة تكفى أسرة مكونة من ثلاثة أفراد على أكثر تقدير . أبى وأمى كانا ينامان فى غرفة . . وكنت أنام فى الأخرى . وكان للشغالة حجرتها الصغيرة . أما حجرة الجلوس فكانت ـ كما هو الحال فى بيوت الطبقة المتوسطة ـ حجرة رمزية لا تصلح لشىء . . ولا حتى لتناول الطعام الذى كنا نتناوله فى المطبخ !

ثم . . ماتت جدّتى فأخذنا جدى ليعيش معنا . . وهو موظف بالحكومة كأبى لكنه بالمعاش . أخذناه لأنه كان مريضاً ولم يكن معاشه يكفى لاستخدام ممرضه . واستغنت أمى عن الشغالة واكتفت بامرأة تعمل بالساعة . وانتقلت أنا إلى حجرة الشغالة تاركة حجرتى لجدى .

ثم . . مات ـ إثر حادث بالطريق ـ زوج خالة من خالاتى وكان مدرسا بالثانوى . فاتفقت خالتى مع والدىّ ـ بعد أن أصبحت

ارملة بابنة وحيدة فى مثل عمرى ودخل محدود ـ أن تأتى هى وابنتها لتسكنا معنا .

تغيير جديد . .

تم نقل جدى إلى حجرة الشغالة . خالتى وابنتها أخذتا الغرفة التى كانت ـ فى الأصل ـ غرفتى قبل أن تؤول إلى جدى . أما أنا فانتهى بى المطاف على أريكة بحجرة الجلوس .

ثم . . إذا باللذين يهبطان علينا من ليبيا بعد أن أقاما بها سنوات طوال . عمٌّ من أعمامى وزوجته ، كلاهما صيدليان ، وروضنا أنفسنا على استضافتهما ـ هما أيضا ـ ريثما يستقران ويقومان بإنشاء صيدلية .

زلزال جديد . . .

أبى وأخوه اشتركا فى غرفة . واشتركنا أنا وأمى وزوجة عمى ـ على قدر ما تيسر ـ فى حجرة الجلوس !

وهكذا صرنا ثماني أنفس تعيش تحت سقف هذه الشقة التى لا تتسع لأكثر من ثلاث !

فى الليل كانت الشقة تتحول إلى عنبر للنوم . وفى النهار كانت المعاناة لا تنقطع . . وتبلغ ذروتها عند انتظار الدّور لدخول الحمّام ، وعند تناول الطعام فى مطبخ ليس به مكان لقدم .

واتبع رفاق الدار ـ حتى يتغلبوا على هذه المعاناة ـ سياسة اللامبالاة . . فكانوا يتظاهرون بأن الأمور تسير على خير

ما يرام . . يتصرفون ويتحدثون ويتعاملون كما لو كانوا فى وضع طبيعى !! فى النادر إذا ما أفلتت تنهيدة من هنا . . أو زفرة من هناك !

أما أنا . . فإن الحياة فى هذا البيت قد أصبحت بالنسبة لى مزعجة إلى درجة الجنون !! ولكن الانزعاج وحده كمظهر للرفض ، لا يروى غليل الأعصاب . .

أعترف أننى إنسانة صعبة المراس . وتتجلى الشراسة حتى فى تركيبتى العضوية . فأنا دميمة . . ووجهى كوجه ولد . . بل و ولد متشرد . . ذى عينين خضراوتين ضيقتين . . تزدادان ضيقا مع دخان السيجارة التى لا تفارق شفتى الغليظتين . والأنف فتحتاه متقلصتان كأننى فى حالة اشمئناط مستديم . والشعر كثيف أسود لامع يبدأ منبته قريباً من الحاجبين . . والجبهة ضيقة عنيدة . وأنا : نافرة . . مرتابة . . منطوية . . مستكينة . لكننى حينما أنفجر . . أنفجر بغباء وجنون . أظل أختزن سخطى وأرقد عليه حتى أتحين فرصة أتفه سبب لأنفجر . ثم أندم بعد ذلك . . نعم أندم وأراجع نفسى وأقول ليتنى ما اختزنت وما انفجرت . . لكن بعد فوات الأوان ! وهذا هو الذى وقع فى بيتنا . .

إننى ـ أساساً ـ كنت أضيق بوالدىّ وعقليتهما الرجعية السطحية المتشددة . ولأنهما والدىّ فقد تحتم علىّ أن أرضى بهما . ولكن إذا

بالقدر يفرض علىّ خمسة آخرين من نفس النوعية التى لا تحتمل !! ومن العجيب أن نوعيتهم هذه لم تكن تستفزنى طالما انحصر التعبير عنها فى مجرد كلامهم .. إذ كنت أشغل نفسى بأى شىء فلا أستمع لما يقولون .

ولكنى لم أفلح ـ مع الأسف ـ فى تحاشى رؤيتهم .

بل إننى كنت أمعن النظر إلى : إشاراتهم ونظراتهم وابتساماتهم وتصرفاتهم ولبسهم وعاداتهم .

كان الحقد الكامن فى أعماقى يتأجج عندما أشاهد فيهم : رباط عنق ما .. أو ملعقة تدس فى فم بطريقة ما .. أو تسريحة شعر على شكل ما ..

أما الحادثة التافهة التى فجّرت ثورتى .. فوقعت صباح يوم كنت انتظر فيه دورى ـ كالعادة ـ لدخول الحمام . وكانت « ليليانا » ابنة خالتى بداخله . فتاة بلهاء .. تقضى يومها فى قضم أظافرها .. وقياس الأثواب .. ولصق الرموش الصناعية ..

كان باب الحمام مفتوحا .. وكانت هى واقفة أمام المرآة ـ مستهزئة بى ـ وكأنها لن تخرج أبداً !

مراشقة كلامية انتهت بانفجارى . عندئذ قفزت على ظهرها وأنا أجذبها من شعرها . دخلنا فى معركة .. وفقت فى نهايتها أن ألوى رقبتها وأضغط على رأسها فأزج به فى حوض المرحاض وأدير السيفون !!

كانت لا تزال تصرخ عندما هربت من المنزل ـ بعد أن دسست بعض الملابس فى حقيبة ـ وقد عقدت العزم على الاّ أعود .

كنت أعرف إلى من سأذهب .

وكنت أفكر فيها منذ مدة .

وربما كان ذلك من دواعى انفجارى .

إلى « كارمن » سأذهب . . صديقة غنيّة من صديقاتى . . كانت قد جمعت فى شقة كبيرة بحى قديم من أحياء روما ، فصيلة من المجتمع ترحب بانضمام أمثالى من المتمردين على الحياة العائلية ، الهاربين من ذويهم .

كانت الشقة بشارع « مونسراتو » على قمة هضبة قديمة ، وكانت قد آلت إلى « كارمن » بالوراثة . وكانت من قبلها مقرا لإدارة أملاك أمير رومانى .

مدخل مظلم . رائحة عطنة . السلالم مليئة بالنتوءات . وبالداخل حجرات متعددة الاشكال . منها ما هو متناهى الصغر . . ومنها ما هو مفرط الاتساع . الأسقف محلاّة بالنقوش . الحوائط مغطاة بقماش يشى بأماكن قطع أثاث ظلت مستندة إليه لاكثر من نصف قرن . أرضية خشبية ترقص تحت الأقدام . لا مطبخ ولا حمام أو دش . مرحاض واحد لاغير !

و « كارمن » ـ التى كم عانت من مركّب الثراء فأرادت أن تمارس حياة الفقر ـ كانت لتوّها قد فرغت من تنظيف الشقة بعد أن

تخلصت من قدر كبير من قذارتها . لكنها لم تكن قد فرغت بعد من إعادة ترتيب تلك الكمية الكبيرة من الأسرّة والكراسى القش .

هى الأخرى كانت قد هربت من منزلها . . على الرغم من أنها لم تعرف « معاناة التعايش » كما عرفتها !! وكانت قد اتخذت قرارا على أن لا تسعى لحتفها بظلفها مرة أخرى !

و « كارمن » هذه . . من نوع غريب . فبينما كان وجهى يشى عن ثورتى الكامنة . . كانت هى : عذبة . . متزنة . . هادئة . . بدينة . . لا توحى على الإطلاق أنها من النوع الثائر . ها هى مستلقية على أريكة بالية ـ وهى ذاتها بالية ـ فى حجرة واسعة جرداء . . مستغرقة طوال اليوم فى الاستماع إلى موسيقاها المفضلة .

وهكذا بدأت أعيش ضمن « جماعة كارمن » .

جماعة . . فيها أزواج من الأجانب القادمين من الشّمال ـ ربما بأطفالهم ـ بحثا عن الشمس ، بأرخص سعر . وفيها فتيان وفتيات هاربين من الريف . وفيها اثنين أو ثلاثة من الزنوج لم ترق لهم الحياة فى الولايات المتحدة . وفيها بضعة ثوار من أمريكا الجنوبية ، واليونان ، وأسبانيا . كل هؤلاء كانوا ينامون على أسرّة صغيرة كأسرّة البحّارة ويأكلون فى أرخص المطاعم . ساعة يتجمعون فى حجرة من تلك الحجرات الواسعة . .

وساعة فى أخرى . . يستمعون الى الموسيقى أو يتناقشون أو يدخنون وهم صامتين .

وكنت أنام فى الحجرة التى تنام فيها « كارمن » وثلاثة من الشبان . ولم يكن هؤلاء الثلاثة دائمين بل كانوا يتغيرون كل خمسة عشر أو عشرين يوما . وكانت الجماعة دائما تحيط « كارمن » بالتعاطف والمحبة . . أما أنا : الشرسة . . المرتابة . . فلم أكن أوحى لأحد بالثقة ، ولم اكن أسعى إلى ذلك .

كنت أقضى أغلب وقتى فى السرير أقرأ وأدخن . . أو أجلس إلى منضدة صغيرة أحاول الكتابة فى موضوع لجأ الىّ به طالب كسول .

وفى الحقيقة . . فإن حياة هذه الجماعة لم تكن تروق لى على الإطلاق . بل ان بعض صفاتهم كان قد بدأ يستفز أعصابى استفزازا شديدا . القذارة . . مثلاً . فمع أننى لست من المتحذلقات . . إلا أننى لم أكن أطيق تلك الرائحة النفاذة التى كانت تفوح من أغلبهم . . فتدفعنى الى فتح النافذة على مصراعيها لتجديد هواء حجرتنا . الألفة . . مثلاً . فمع أنه كان من الطبيعى أن نكون جميعا متآلفين مبتعدين عن التكلّف . . إلا أن تعجلهم فى رفع التكلف ـ ببعض التصرفات ـ أساء الى الهدف منذ البداية :

ساوجه اليكِ لفظة « أنت » عند مخاطبتك . . وأنتِ كذلك !
كلّ ما للكِ فهو لى . . وأنت كذلك !
سأقبّلك كلما أريد . . وأنتِ كذلك !
وجاءت تصرفاتهم هذه بنتيجة عكسية فلم تتقدم الألفة بينى وبينهم خطوة واحدة . . وأحسست أننى وحيدة كما كنت ، بل أكثر مما كنت ، وظلوا جميعا غرباء بالنسبة لى ، وإن راحو يتظاهرون بعكس ذلك .
والمثال الأخير هو : الاختلاط . كان لدى دليل ملموس لمساوئ الاختلاط بين هذه الجماعة . ذلك أن « كارمن » كانت حاملاً منذ ستة أشهر . . ولم نكن نعرف ممّن . . وربما هى نفسها لم تكن تعرف !!
ويرجع السبب إلى عامل الاختلاط هذا . . فى أننى - فى النهاية - انفجرت من جديد .
ذات ليلة . أستيقظت على إحساس ما بأن هناك من يندس بجانبى تحت الغطاء ! أدفعه دفعة قوية . . وإذا بصوت ارتطام على الارض . أضىء النور . إنه فتى . . جاء حديثا من قرية « لاتينا » . . فلّاح . . أخطأت عندما قدمت إليه - فى أول ليلة - سيجارة .
وجعلت أكيل له السباب بصوت عالٍ . . والغضب يكاد يعمينى . . فأقفز على ظهره - وهو لا يزال على الأرض ينظر الىّ

بفزع ـ وأنهال عليه لكماً وركلاً . . وعندئذ يستيقظون جميعا متصايحين . . والفتى يحاول أن يتلمس طريقا للهروب بعد أن أفزعته ثورتى . . و « كارمن » تهبط من سريرها لتحتوينى بين ذراعيها لتسكتنى وهى تؤنبنى بطريقة الوعاظ على ما قمت به من انقلاب :

ـ ولم كل هذا الكبرياء ؟! وحتى لو أنه مارس الحب معك فعلاً . . فأين هو الجرم الخطير فى هذا ؟! من تظنين نفسك ؟!

وعند هذا الحد . . لم أدر ما دهانى !!

وقفت أمامها . . ودفعت بها على سريرها . . ثم امتطيت بطنها ـ مخاطرة بالنتائج ـ وانهلت عليها صفعاً !!

ولم ينقذها منى إلاّ الآخرون . . أما هى فقد هبط عليها ذهول أمات فيها أى رد فعل !!

وانتهزت لحظة الارتباك . . فوضعت حاجياتى فى حقيبتى ولذت بالفرار . .

ها أنذا فى الشارع . .

أظل أسير حتى أصل الى نهر « التيبر » .

أضع الحقيبة على الأرض ، وأشعل سيجارة .

ألقى بناظرى بعيدًا . . فى ظلام الليل . . ومجرى النهر تتلاعب على صفحته لألأة فوانيس النور .

تراودنى رغبة فى البكاء . . ولا أبكى .

شيئا فشيئا أستعيد هدوئى . . وعندئذ اتجه إلى محطة الترام المؤدى الى « سان جيوفانى » . . أعرف هناك من يمكنه أن يأوينى هذه الليلة . وبينما انتظر الترام . . أقول لنفسى :

كم من الظروف العصيبة تحتاح أمثالى من ذوى القلوب الطيبة . . . .

الدولاب

قتلت زوجى بطريق الخطأ .. بينما كنت أداعبه ! صوّبت إليه مسدّسا - كنت أتصوّر أنه فارغ - وضغطت على الزّناد وأنا أهتف فى لهجة مسرحيّة : « والآن .. أقتلك .. طاخ ! » .

ابتسمت الشغّالة التى كانت تخدّم على المائدة وهى تلمح هذا المشهد .

أما زوجى فقد انتابته نوبةُ ضحك ! إذ يبدو أن أول ردّ فعلٍ للطلقة التى تصيب القلب .. هو الضحك !!

ضحك زوجى .. ثم بدأ يسقط من فوق مقعده ، كما لو كان ينهزم فى سقطته .

وألقى القبض علىّ . وبدأ التّحقيق فى كل كبيرة وصغيرة .. حتى ثبت فى النهاية أننا كنا نعيش فى قمّة الحب . فأطلق سراحى ، وظهرت براءتى .

وذهبت لأقيم مع والدىّ فترة فى الرّيف . فأنا ابنة وحيدة لأب وأمّ يكنّان لى كل الحب .. ولم يعد يشغلهما شىء سواى ، وحياتى التى تحطّمت بعد أن أضحيت فريسة ذلك الحادث

المروع !
وهذا صحيح إننى حقيقة فريسة حادث .
ولاشك أن حياتى قد تحطمت !
غير أنّ ذلك الحادث وقع منذ زمان بعيد .. وحياتى هذه لم يحطّمها سواهما : أبى وأمى !!
كنت طفلة ذات إحساس مرهف يرقى الى درجة الشفافية .
كنت عندما أحبّ أحداً ، أحبّه دفعة واحدة ، وأحبه بعنف .
كانت مشاعر الحب عندى كأعراض « الحمىّ » .. ترتفع حرارتها الى أعلى درجة فى لمح البصر !
وكلما استحكم منى الحب ، كلما تفانيت فى هذا الحب ! حتى أننى أجلو جلاء تاماً عن ذاتى لكى أدع محبوبى يحتلّ جوانحها .
وكان محبوبى فى ذلك الوقت : أمىّ .
كنت أحبّها ... كلاّ إن كلمة « أحُبها » هذه لا تكفى . لقد كانت أمى متربَعة فى جوانح ذاتى تملأ كل كيانى .
كنت أشعر ونحن معاً أنه لا يوجد إلاّ شخصٌ واحد فقط : أمىّ .
كانت تبدو لى فى ذلك الوقت وكأن مسحة من العذابْ تضنيها ، مع أنها فى الواقع كانت سعيدة ، سعيدة بطريقتها الخاصة فى الحياة . حياة زوجية متقنة المقادير فى التناقض والتوافق العاطفى !
وكنت أنحاز - اذا ما نشأ خلافٌ بينها وبين أبى - أنحاز بتعصّب

أعمى إلى صف أمى !
وذات يوم . . اخترقت يد أبى مجال بصرى لكى تهبط بعنف على خدّ أمى !
وهرعت أمى إلى غرفتى تنتحب وهى تضمنى إلى صدرها بيدين متشنّجتين ، وفجأة أفاقت من نحيبها وصاحت بى :
ـ هيا بنا . لمّى حاجاتك وارتدى معطفك ، وسأعد أنا حقيبتى . وسنرحل عن هذا البيت إلى الأبد . . . »
وتركتنى وخرجت .
ورحت أنا فى حماس ونشوة أسرع بانتقاء أعزّ ما لدى من اللعب ، وألملم ما تقع عليه يداى من ملابسى فى حقيبة . ثم ارتديت معطفى ، وهرولت ناحية حجرة أمىّ .
كان الباب مورورباً فاستطعت أن ألمح ـ فى غير وضوح ـ أبى وأمى على السرير : كومة واحدة ! وجاءنى صوت أمىّ واهناً متحشرجا منفّراً ينادى علىّ وهى تزجرنى وتأمرنى أن أعود الى حجرتى .
فى تلك اللحظة . . أحسست بالمهانة والمذلّة والذعر .
أحسست بهم جميعاً يفتكون بى . وشعور بغيض سيطر على ساعتها . شعور من ألقى نفسه فى أحضان من لا يستحق ! ! ولم أدرك وقتها ما دهانى . . وجدتنى أنقسم فجأة الى شخصيتين منفصلتين :
واحدةٌ . . وهى الشخصية الأصلية ، تنكمش وتتقوقع .

والأخرى .. وهى الصّورة المزيّفة للشخصية الأصلية ، مكلّفة بأداء الدّور على مسرح الحياة .

وهكذا صنت نفسي - بإحساسها المرهف وشفافيتها الفائقة - من شرّ التعامل مع الناس !

أصبحت « الأخرى » هى التى تحب ، وصارت « الأخرى » هى التى تخادع ..

أما « أنا » فكنت متباعدة ، منطوية ، قابعة فى مكمنى .. أتفرّج !! وأراحنى هذا الوضع الجديد راحة كبرى ، هدأت نفسى ولم أعد أعانى .

إلّا أننى بدأت - من جهة أخرى - أشعر بالوحدة !

وراح هذا الشعور يتزايد مع مرور السنين .

لم أكن أسمح لنفسى أن تتصل اتصالا مباشراً بأحد . أسندت هذه المهمّة بالكامل إلى تلك « الأخرى » التى صنعتها لهذا الغرض .

ولقد كانت هذه « الأخرى » - والحق يقال - متقنة الصنع : ذكيّة .. نشطة .. متحرّرة .. متحفّزة .

كانت « الأخرى » هى التى تمارس شئون الحياة ..

أما « أنا » فكنت مكتفية بدور المراقبة .. وشتّان مابين الوضعين . أفعل هذا وأنا منكمشة متقوقعة مخافة المذلة والذعر والمهانة التى طعنتنى بها أمّى فى يوم من الأيام !

وأقمت حول نفسى سياجاً منيعاً . . تحوّل مع الزمن الى سجن !
وذات مرة . . دعيت إلى حفل ساهر بقصر كبير فى الريف .
وراح شابٌ من بين المدعوين يتقرب منى . كان جادّ السّمات .
عرفت أنه تخرّج حديثا من كلية الهندسة . وبدأ يغازلنى غزلا
هادئاً رقيقاً . أحسست بسنوات العزلة عن النّاس تزحف على
صدرى تكاد تطبق عليه وتكتم أنفاسى ! ووجدتنى لأول مرّة
أعفى « الأخرى » من مهمتها . . قلت لها إننى أريد هذه المرّة أن
أكون « أنا » . . بلا وسطاء أو مندوبين . أريد أن أُحِب . . وأن
أُحَب .

ولقد كان . تزوجنا فى تلك السنة .

وحتى أصور لكم مدى تعطشى للحب . . يكفى أن أروى لكم
كيف التقيت بزوجى أول مرّة ، رغم وقاره وتحفّظه ! ذات ليلة
ارتديت أجمل قميص نوم لدى ثم أسرعت الى حجرته واختبأت
فى دولابه بين ثيابه وكرافاتاته ! لعل ذلك الدولاب كان رمزاً أراد
به عقلى الباطن أن يرمز به الى السجن النفسى الذى كنت أحيا
بين قضبانه !

كان الدولاب مظلما . . وكان قلبى وجلاً .

رحت أترقب عودته ، حتى اذا ما رقد على سريره ، انطلقت من
الدولاب ، بل من السجن ، أو من كليهما . . لأحتمى فى
حبّه . كنت أهواه بكل قواى !! أما هو فكان يحبنى بطريقة

عادية . بطريقته الهادئة الوقورة .

ولم يكد يمضى على زواجنا عام واحد حتى بدأت أخاف من حبى !! فلقد رحت أفعل ما فعلته ـ يوماً ـ مع أمى : جلوت جلاء تاماً عن ذاتى ، وأحللت محلّها زوجى . جعلته يتربع بين جوانحى .

كنت أشعر ونحن معاً أنه لا يوجد الآ شخص واحد فقط : زوجى .

ووجدتنى استعير تعبيراته وأنا أتحدث . . وأقلد طريقته . . وأستبدل الجونلّة بالبنطلون حتى أبدو مثله ! حتى أن كل من كان ينظر إلينا من الخلف يظننا توأمين ! فكلانا كان ذهبى الشعر ، يميل شعره للطول وشعرى للقصر ، ونرتدى ثياباً متشابهة .

لقد كان إحساسى المرهف ذلك يفزعنى !

ماذا أفعل لو أن زوجى قد انتابته حالة من حالات اللامبالاة ، فأقدم يوماً على نفس اللعبة التى أورطتنى فيها أمىّ ؟! ماذا أفعل ساعتها ؟! وكيف سيكون عليه حالى ؟!

كان مجرد التفكير . . يرعبنى !!

وهكذا وجدتنى أسارع فى استدعاء « الأخرى » كى أرجوها أن تحتل مكانى ، لأننى لم أعد أقوى . .

ولم تتردد « الأخرى » . انقضّت على زوجى كالقطة الجائعة .

أما « أنا » فقد تقهقرت ـ بمحض إرادتى ـ لكى أنزوى بين

جدران السجن . السجن الذى كان الحب قد أطلق ـ يوماً ـ سراحى منه .

وراحت « الأخرى » تتبادل الحب مع زوجى . و« أنا » أرقبهما مثل طريد لا يملك العودة . طريدٌ قد ألصق أنفه بزجاج نافذة فى صقيع ليل حالك ليشهد دفء حياة بهيجة تدور بين جنبات بيته . . الذى كان ! !

تحمّلت ذلك الموقف فترة . . حتى نفد صبرى فلم أعد أحتمل .

وقررت أن أنحىّ « الأخرى » وأن أعود الى الدخول فى علاقة مباشرة مع زوجى . لكننى فشلت هذه المرّة . لم تشأ « الأخرى » أن تنصرف !

حاولت إقناعها بشتىّ السّبل .

بالحسنى تارة . . وبالتهديد تارة . . دون جدوى .

ظلت تحول بينى وبين زوجى وهى تمارس فنون ألاعيبها الغرامية . . و« أنا » عاجزة عن مجاراتها ، مع كل ما اكنّه له من مشاعر صادقة هادئة وديعة .

كانت تقول لى ـ أحياناً ـ والخبث يتراقص فى عينيها : ـ حسناً . سأتنحىّ . ها هو ذا أمامك . تفضّلى . . وأبدأ معه « أنا » قلقة مهزوزة محاولات بدائية هيابة . . لكن . . لا حياة لمن تنادى !

كان قد اعتاد على « الأخرى » وفنون غرامياتها الملتهبة .

وعندئذ تصيح هى فى انتصار :

ـ ألم تقتنعى بعد ؟! إنه محتاج إلى زيفى لا الى صدقك . هيّا ارحلى ودعينا فى سلام .

وذات يوم استمعت إلى زوجى يقول لأمه فى التليفون أنه سيسافر إلى باريس . كنت فى الحجرة المجاورة وهو يقول لها :

ـ سأصحب « سيلفيا » معى بالطبع . لا أستطيع أن أتركها هنا وحدها . فهى شديدة التعلّق بى وإنى لأخشى عليها من الاكتئاب فى البعد عنى .

وبالفعل . بدأ الاكتئاب ينهشنى على الفور . إن التى سيصحبها زوجى معه إلى باريس هى « الأخرى » .

أما « أنا » فسأبقى وحيدة . وحيدة بكل معنى الكلمة . دون أى عزاء . عزاء مراقبة حبهما على الأقل !!

استجمعت قواى . . وواجهت « الأخرى » مواجهة صريحة . ينبغى أن تتركنى أرافق زوجى فى باريس ، لقد استمتعت به هى ما فيه الكفاية . ومن العدل أن يجىء دورى !!

وعلى عكس ما كنت أتوقع . . وجدت « الأخرى » تستسلم وهى تقول :

ـ حسنا . . فلترافقيه أنت فى باريس . ولكن تذكّرى جيدا أننى اتركه لك مدّة الرحلة فقط وستردّينه لى فور عودتكما .

قضينا أنا وزوجى أسبوعا فى باريس كان كشهر العسل !

كيف استطعت ؟!

ببساطة كررت مشهد لقائنا الأول .

ما أن وصلنا باريس حتى اختلقت حجّة استطعت بها أن أجعل زوجى يغادر الفندق . ثم خلعت ثيابى وارتديت أجمل قميص نوم لدىّ واختبأت فى الدولاب .

ومرّة أخرى بدا لى الدولاب مظلماً خانقاً كأنه يرمز إلى ذلك السجن النفسي الذى أقضى حياتى بين جدرانه !

وانتظرت طويلاً حتى جاءنى صوت زوجى وهو ينادينى .

وهنا فتحت الدولاب على مصراعيه .. وأطلقت صيحة فرح شاهقة .. وارتميت فى أحضانه !

ها أنذا قد برئت أخيراً ..

على أننا ما أن عدنا إلى إيطاليا حتى شاهدت « الأخرى » فى المطار وهى تسير إلى جوارى ـ كتفاً بكتف ـ وتحثّنى أن أعيد إليها زوجى !!

ورفضت رفضاً باتاً .

فى صباح اليوم التالى إذا بتلك المجرمة ـ وقد حان الوقت أن ألقبها بتلك الصفة ـ تغادر المنزل وهى تتوعّد بكلمات لم أدرك مغزاها !

رحت أتتبّعها .. فإذا بها تدخل محلاًّ لبيع الأسلحة وتشترى مسدسًا !

لم يخف علىّ مخططها . وقررت أن أحبطه .

أدخل حجرتها - أثناء غيبتها - وأفتش ، فأجد المسدس .
اتناوله ، وأفرغ خزان الذخيرة . أعود - وقد هدأ بالى - إلى زوجى على المائدة ، والبقية تعرفونها . .
كنا على المائدة
« أنا » أتأمل زوجى فى رقة وهيام . .
و« الاخرى » تراقبنا وقد تآكلت غيرةً وحقدا !
وفجأة . . إذا بها تنتزع المسدس من جيبها لتصوبه إليه وهى تقول :
- الآن . . اقتلك . . طاخ !
لم أحرّك ساكناً . كنت أدرك أنها ليست مجرد مداعبة ، كما أرادت هى تصويرها . كما كنت واثقة أيضا أننى قد أفرغت خزان الذخيرة . لكننى لم أدخل فى حساباتى - إطلاقا - احتمال قيام « الأخرى » بإيلاج رصاصة فى ماسورة المسدس !
وانطلقت الرصاصة . .
وسقط زوجى صريعا . .
وكما سبق أن قلت لكم . . استطعت أن أثبت أن الرصاصة قد انطلقت بطريق الخطأ . وبذا أنقذت « الأخرى » من جريمة ثابتة .
لم أنقذتها ؟!
لأننى لا أثق فى ذاتى .

لأننى أدخر « الأخرى » للظروف .

من يدرى ؟ فلربما ألمَّ بى مرّة أخرى حبٌ جارف وعندئذ سأحتاج إليها .

أدرك تماما أننى حينما أقدمت على إنقاذها فإنما قد ربطت نفسى بمجرمة .

بل أدرك أكثر من ذلك أننى ربما أكون شريكتها فى الجريمة .

كما أنى أدرك أن مقتل زوجى ليس إلاّ بداية لسلسلة من الجرائم .. فإن الإفلات من العقاب مرّة سيحرّضها على التمادى فى الإجرام .

وراح والداى يبحثان لى عن زوج جديد .

لكم أرثى لهذا الزوج الجديد من قبل أن أعرفه !

ذلك أننى لو تزوجته فسيتحتم علىّ أن أمنحه لـ « الأخرى » وأنزوى « أنا » بعيداً .. فى السجن !

وإلاّ .. فسيتحتم علىّ أن أتحمّل وزر مصرعه تحت سمعى وبصرى !!!